حاضرة تنبكتُ في نهاية القرن التاسع عشر من خلال الكتابات الفرنسية

(مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار نموذجا)

The City of Tombouctou at the end of the 19th Century through the French Writings

(Monograph of Father Augustin Prosper Hacquard Model)

د. عادل بن محمد جاهل

adil.jahil@edu.uiz.ac.ma

جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أگادير، المغرب.

تاريخ الاستلام: 2019/08/26 تاريخ القبول للنشر: 2019/12/27

ملخص:

تروم هذه الورقة تسليط الضوء على جوانب من تاريخ حاضرة تنبكتُ (الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، والديني، والعلمي)، وتحديدا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، من خلال شهادة الأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار، الرجل العارف بخبايا بلاد السودان الغربي، وبعادات التوارگ، وبتقاليد البيظان، والمتمكن من مختلف اللغات واللهجات التي يستعملها أهالي تلك المناطق الإفريقية، وما يزيد من أهمية البيانات التي استجمعها الأب السالف الذكر، كونها مستقاة من عين المكان الشيء الذي يجعلنا نطمئن لها بكثير من الارتياح.

الكلمات المفتاحية: تنبكتُ؛ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي؛ الكتابات التاريخية الفرنسية؛ أوگوسطان پروسپير هاكار.

Abstract:

This paper sheds light on aspects of the history of the social, economic, cultural, religious and scientific history of Tombouctou, at the end of the nineteenth century, through the testimony of the French father and explorer Augustin Prosper Hacquard, the man who knows the secrets of Western Sudan, the customs of the Tuareg people, and the traditions of Bidan, He is also fluent in local languages and dialects spoken by the inhabitants of those regions, What gives added value to the aforementioned explorer's data is that it is a field investigation, which makes us very satisfied with it.

Key words: Tombouctou; The End of The Nineteenth Century; The French Writings; Augustin Prosper Hacquard

مقدّمة:

يبدو أن أغلب الرحالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين الذين جابوا مجاهل حاضرة تنبكتُ، جوهرة الصحراء الكبرى، وقلب بلاد السودان الغربي، على الأقل منذ عشرينات القرن التاسع عشر، كانت المغامرة، وارتياد المجهول، واكتشاف العجيب والغريب، والتنقيب عن الطريف والمدهش، والخروج على المألوف، والبحث عن الثراء السريع، والرغبة في الحصول على جائزة خاصة، من الغايات الرئيسة والبارزة، التي دفعتهم إلى التنقل إلى عين المكان، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم، أملا منهم في تحقيق بعض المكاسب المادية والمعنوية والرمزية. وعلى هذا الأساس، وانطلاقا من تلك الدواعي، وصل إلى حاضرة تنبكتُ، التي كانت تكتسي في مخيّلة الأوروبيين بشكل عام طابعا غرائبيا، جمهرة كبيرة من المغامرين والمدنيين الفرنسيين، الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، ومنهم أيضا المستكشفين والرحالين المحترفين، الذين تعوّدوا على الرحلة، وركوب الأمواج، ومنهم رجال الدين، الذين رغبوا في القيام بنشر رسالة المسيح، وتعاليم الإنجيل، ومنهم رجال العلم، حملة الريشة والقلم، الذين استهوتهم الأبحاث عن الغريب في الطبيعة والإنسان. ونجد من بين هؤلاء المستكشفين أيضا، الضباط العسكريين الذين عملوا على إعداد معرفة جغرافية، ورصد أحوال المنطقة

والساكنة، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، مهما بدت صغيرة وتافهة، تمهيدا لغزو قد يأتي لا محالة، ومنهم المستكشف بالصدفة، الذي وصل إلى المنطقة، بكيفية أو بأخرى، فاستهوته مجاهل حاضرة تنبكتُ، حاضرة ''العجائب''، و''الغرائب''، و''الخوارق''، و''الإثارة''، فحرّر على إثرها، ارتسامات، وخواطر، وانطباعات، مرتبطة بالمجال والإنسان التنبكتي.

علاوة على ما تقدّم، نجد أن أغلب هؤلاء الرحالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، قبل أن تطأ أقدامهم حاضرة تنبكتُ والمناطق الإفريقية القريبة منها، كوّنوا خلفية تاريخية، وجغرافية، ودينية، وحضارية، أصيلة وعميقة؛ حيث درسوا الثقافة الإفريقية بأبعادها المختلفة، بل أكثر من هذا، تعلموا اللهجات المحلية، والعلوم الإسلامية، وعادات السكان المحليين؛ وذلك كله من أجل تسهيل مأموريتهم والنجاح في مهمتهم. وانطلاقا من ذلك، تمكّن هؤلاء الرحالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، من جمع كم هائل ومهم من الأخبار، والمعلومات، والمعطيات، والبيانات، القيّمة، عن الوضعية السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقبلية، لحاضرة تنبكتُ، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة، عن أوضاع هذه الحاضرة، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومُثلهم الأخلاقية، خلال طيلة الشهور والسنوات التي قضوها فيها؛ قصد التقصي والاستخبار عن جزء مهم واستراتيجي من بلاد السودان الغربي.

في المقابل، واجه هؤلاء المستكشفين والرحالين والعسكريين الفرنسيين، أثناء تسللهم للحاضرة المذكورة، أو أثناء إجراءهم لبحوثهم الميدانية فيها، صعوبات، وعراقيل، ومشقات، جمّة، حيث إن بعضهم تعرض للأسر، والإغارة، والسرقة، والموت، والجوع، والعطش، والتهديدات البشرية، وتباين الألسنة، واختلاف العادات، ومنهم أيضا، من واجه الحرارة المفرطة، والزوابع الرملية والغبارية، والرياح الجافة والساخنة، والمرض، والأوبئة، ومخاطر الطريق، وطول مسافة السفر، وعدم وضوح معالم الطريق، ولسعات العقارب المميتة، ولدغات الحيات والأفاعي القاتلة.

وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات، والمشاق، والعقبات، الطبيعية والسوسيو ثقافية الكثيرة والمتنوعة التي اعترضت هؤلاء الرحالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، أثناء تسللهم للحاضرة المذكورة، أو أثناء أبحاثهم وتحرياتهم الميدانية فيها، إلا أنهم تمكّنوا جميعهم من تقديم مادة معرفية أولية، عمّا شاهدوه، وسمعوه، وعاينوه، عن شؤون وأوضاع هذه الحاضرة الإفريقية المجهولة، وغير المعروفة لديهم، سكانا، وقبائل، وشيوخا، خاصة وأن هذا المجال، يُعتبر من المجالات التي لم يتيسّر للرواد والمستكشفين الفرنسيين الأوائل، زيارتها ومعرفة تفاصيل أحوالها وشؤونها عن قرب.

ويعتبر كتاب ''مونوغرافية تنبكتُ''، للأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار من بين الشواهد المصدرية التاريخية الأجنبية القليلة التي أرّخت لحاضرة تنبكتُ، وبالضبط في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، خاصة لما لهذه المرحلة من أهمية قصوى من الناحية التاريخية، حيث تميزت بتسارع الأحداث وتلاحق الوقائع، إضافة إلى ما كان لها من تأثير كبير في توجيه تاريخ حاضرة تنبكتُ، وإحداث تحولات كان لها وقعا عميقا في بنياتها المختلفة، سواء من الناحية السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو الدينية، أو الديموغرافية، وحتى الثقافية. وهكذا تضمّن الكتاب السالف الذكر، معلومات، ومعطيات، وإيماءات، تعتبر بحق، نادرة، وثمينة، ومثيرة، وقلّما تلتفت إليها المصادر المحلية الإفريقية المتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية، وهي خصيصة تشترك فيها كل المجالات الصحراوية البدوية، والتي تتميز بضعف التدوين وقلة المكتوب[1]. وفي مقابل تأخر انتشار ثقافة التدوين وتقاليده في المنطقة المذكورة، نجد غلبة الثقافة والرواية الشفهية التي تتوارثها الأجيال الإفريقية أبا عن جد، في أحايين كثيرة جدا خارج سياقاتها الطبيعية زمنا وموضوعا، الشيء الذي يجعل من المستحيل أمام هذه الوضعية الإسطوغرافية المحدودة والهزيلة، تكوين صورة متكاملة وشاملة حول تاريخ المنطقة الإفريقية وحضارتها بدقة وموضوعية. وهكذا، يمكن اعتماد الكتابات الأجنبية كبديل مكمّل ومنطلق أساسي في إعادة تركيب جزء من أحداث الماضي التنبكتي بشكل خاص

وإفريقيا الغربية بشكل عام خلال الحقبة التاريخية المذكورة أعلاه. وذلك بعد تمحيص تلك الشهادات المصدرية الأجنبية والتدقيق فيها، وفق منهج علمي صارم وواضح المعالم، قصد استخلاص الجيد والاستفادة منه، وطرح الرديء والتخلص منه.

إذن، ما هي الصور التي رسمها الأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار عن حاضرة تنبكتُ؟ وإلى أي حد تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والديني والعمراني للحاضرة المذكورة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي؟

هذه الأسئلة، وغيرها، هي التي سنحاول البحث عن أجوبة لها، في قادم سطور هذا العرض المتواضع.

المبحث الأول: التعريف بالأب أوگوسطان پروسپير هاكار ومونوغرافيته

المطلب الأول: من هو الأب أوگوسطان پروسپير هاكار؟

ازداد أوگوسطان پروسپير هاكار في فرنسا يوم 18 شتنبر 1860م، وتحديدا في قرية ألبيرسطروف (Albestroff)، التابعة لمقاطعة نانسي (Nancy)، والواقعة في إقليم اللورين (Lorraine)[2]، استهل دراسته الابتدائية في قريته المذكورة، وبعد ختمه لدراسته فيها عام 1873م، التحق بمدرسة "بونت-أ-موسون" (Pont-à-Mousson) في حلقة دراسية صغرى، قبل أن يلتحق سنة 1877م بحلقة دراسية كبرى في مقاطعة نانسي (Nancy). وفي سنة 1878م قدّم طلبا للقبول في الجمعية الإفريقية للمبشرين (الآباء البيض) التي أسسها الكاردينال شارل مارتيال لافيجوري (Charles Martial Lavigerie) عام 1868م بـ "الجزائر الفرنسية"[3]. ورغم رفض والديه لرغبته في الانضمام للجمعية المذكورة آنفا، سافر في مطلع شتنبر 1878م نحو مارسيليا ثم إلى "ميزون كاري" (Maison-Carrée) أو مدينة الحراش والقريبة من مدينة الجزائر العاصمة، وفيها تولى التدريس ما بين سنوات 1881م و1883م، وتحديدا في معهد قرطاج (Collège de Carthage). وبموازاة مع ما تقدّم، تمّ تعيين الأب

أوگوسطان پروسپير هاكار في 8 شتنبر 1884م "قسا" (Prêtre)، ثم أستاذا في مدرسة سانت أوجين (Saint-Eugène) بالجزائر العاصمة[4]، وفي فترة لاحقة عيّنه الكاردينال شارل مارتيال لافيجوري محافظا للدروس في نفس المدرسة الآنفة الذكر، وهكذا شرع يعد لامتحانات التاريخ بكلية "إيكس أون بروفانس" (Aix-en-Provence)، وبها حصل في 28 يوليوز 1884م على شهادة الإجازة بميزة (حسن) محققا بذلك الرتبة الأولى في فوجه، وبعد هذا التفوق البيّن طلب منه الكاردينال شارل مارتيال لافيجوري السالف الذكر، إعداد أطروحة دكتوراه حول موضوع (إفريقيا المسيحية القديمة)[5].

إلى جانب ما سلف ذكره، أسند الكاردينال شارل مارتيال لافيجوري سنة 1891م للأب أوگوسطان پروسپير هاكار مهمة رئاسة هيئة دينية وعسكرية حديثة في مدينة بسكرة بـ "الجزائر الفرنسية"، هذه الهيئة أُطلق عليها اسم "رهبان الصحراء المسلحون" (les Frères Armés du Sahara)[6]، وقد أخذت هذه المؤسسة على عاتقها مهمة محاربة العبودية والاسترقاق، وأيضا استقبال العبيد الفارين من أسيادهم في المنطقة المذكورة، ونتيجة ذلك تمكّن أوگوسطان پروسپير هاكار من خلق علاقات وصلات جيدة ومتينة مع الجنود الفرنسيين أو مع أهالي تلك المناطق[7]. ونلاحظ من جهة أخرى، أن الأب أوگوسطان پروسپير هاكار سرعان ما استبدل بطريقة أو بأخرى العلم والرهبنة بالاستكشاف والمغامرة، وهكذا أضحى يوجه اهتمامه بشكل عميق نحو اكتشاف مجاهل ومفاوز السودان الغربي، في إقبال نادر، ورغبة جامحة، واندفاع غريب، بقصد الاستخبار والتقصي، وتجميع معلومات تهم بالأساس الميادين (العسكرية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعمرانية).

لذلك، أسندت إليه الدوائر الاستعمارية الفرنسية مهمة استكشاف بلاد التوارگ في 12 يناير 1894م هو ومجموعة من الرهبان، خاصة وأن الأخير كان يجيد اللغة العربية واللهجات المحلية، وتحديدا لهجة "التماشق التوارگية"، إضافة إلى طريقته الخاصة والفريدة

في التعامل مع الساكنة المحلية[8]، وقد حققت هذه البعثة انطلاقا من تلك المؤشرات الغايات المرجوة منها، وهي تكوين صورة واضحة وجلية حول مجال السودان الغربي المراد الانقضاض والسيطرة عليه، وهو ما يمكن أن نطلق عليه ''مرحلة التأسيس للغزو وتعبيد الطريق أمامه''. وفي ذات الاتجاه، قام الأب أوگوسطان پروسپير هاكار برحلة استكشافية جديدة في 25 دجنبر 1894م مع بعض ''الرهبان البيض'' (Les Pères Blancs) من أجل تعميق البحث حول بعض الحواضر الإفريقية، وتحديدا حاضرة تنبكتُ وبعض المناطق القريبة منها، مثل: موبتي (Mopti)، وجني (Djenne)، وبانديا گارا (Bandiagara)، وسانسانديگ (Sansanding)، إضافة إلى حوض النيجر والداهومي العليا، وغيرها من المناطق الإفريقية الأخرى.

توفي الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، المعروف لدى أهالي حاضرة تنبكت باسم ''عبد الله''، في أوج عطائه العلمي والتبشيري، يوم الخميس 4 أبريل 1901م، في ظروف تبدو غامضة ومبهمة، بيد أن بعض الشهادات المصدرية البريطانية، تُبيّن بجلاء أن الرجل توفي غريقا قي منطقة ''سيگو'' (Ségou) بحوض النيجر، أثناء قيامه بالاستحمام أو السباحة هناك[9]، كما أن جثته لم يُعثر عليها أبدا، وهكذا فقدت الدوائر الاستعمارية الفرنسية، عصرئذ، أحد أقطابها الكبار في بلاد السودان الغربي، من ناحية الاستكشاف والمغامرة والتبشير[10]، مخلفا وراءه أعمالا تاريخية دقيقة، وبحوثا جغرافية قيّمة، عن أهم المجالات والحواضر الإفريقية، وعلى وجه الخصوص حاضرة تنبكتُ.

المطلب الثاني: مونوغرافية تنبكتُ (قراءة في قيمتها العلمية ومكانتها التاريخية)

يُعتبر كتاب ''مونوغرافية تنبكتُ'' للأب أوگوسطان پروسپير هاكار، من بين الأعمال العلمية التاريخية والاثنوغرافية والاجتماعية والعسكرية والروحية، العظيمة القدر والأهمية، حول أهم وأعرق حاضرة في بلاد السودان الغربي ''تنبكتُ''، خاصة وأن المؤَلِّفْ أرّخ للحاضرة المذكورة في فترة كانت حبلى بأحداث جسام، شهدتها مجمل البلاد السودانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لعل أبرزها الهجمة الامبريالية الأوروبية الشرسة على

إفريقيا الغربية، وما يزيد من أهمية هذا الكتاب، هي الطريقة والمنهجية التي اعتمدها المؤَلِّفْ أثناء تحرير صفحات كتابه، والقائمة أساسا على المشاهدة المباشرة والوصف الدقيق لأحوال مجتمع حاضرة تنبكتُ، التي زارها المستكشف وخبر شؤونها عن قرب، ويكفي أن يلقي المرء إطلالة سريعة على مضامين الكتاب، ليتأكد عن كثب على جودة المواضيع التي عالجها صاحب التأليف بأرقى أساليب التعبير، لذلك ليس غريبا إذا لاحظنا أن الدوائر الاستعمارية الفرنسية تنعته بـ "**الرجل الذي يعرف جيدا [خبايا] السودان الفرنسي**"[11].

لعل ما يسترعي الانتباه في هذا الصدد، هو أن مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، تعتبر فريدة في بابها، متميزة على غيرها، حيث لم تكن ممزوجة بالخيال والسذاجة، كما لم يغلب عليها روح المغامرة والإثارة، ولم يكتنفها الكثير من الغموض، غموض حاضرة تنبكتُ، عندما حاول الرواد الأوائل اقتحامها أو الكتابة عنها، وينبغي ألا يغيب عن الأذهان، في هذا السياق، أن صاحب التأليف كان خبيرا ومتمكنا من مادته المعرفية، عارفا بخباياها، سابرا لأغوارها، كيف لا؟ والمؤَلِّفْ "**كان على دراية تامة بالبيظان وبعادات التوارگ ويجيد مختلف اللغات واللهجات التي يستعملها ساكنة السودان**"[12]. على أن ما يسترعي انتباهنا أكثر، في هذا الباب، هو أن الكتاب رغم أنه أُلِّفَ بتوجيه خاص من طرف الحركة الاستعمارية الفرنسية، إلا أنه يحمل في طياته ومضامينه نسبة كبيرة من الدقة والموضوعية، عكس بعض الكتابات الأجنبية الأخرى، التي غابت الحقائق عنها، أو غيّبتها عن عمد أو قصور، لدواعي امبريالية مكشوفة، أملتها الظرفية والمرجعية الاستعمارية، الشيء الذي جعلها تسقط في الكثير من التناقضات والمزالق العلمية، إضافة إلى تكريسها تلك النظرة الاستعلائية النمطية المتحاملة، المبنية على التفوق الغربي، وعلى هيمنت الحضارة الغربية، وكل ذلك من أجل خدمة أجندة الاحتلال والاستغلال، حيث صوّرت الساكنة المحلية، كأجناس متوحشة

تارة، وهمجية ومتخلفة تارة أخرى، تعيش خارج نطاق التاريخ، وتفتقد إلى الحضارة والمدنية، وبالتالي، وجب إخراجها من عتمة البدائية إلى دائرة ضوء الحضارة الأوروبية المتقدمة.

الملاحظة الرئيسة التي لابد من إبرازها، هنا، هي أن مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، هي عبارة عن تحريات وأبحاث ميدانية دقيقة، وفي عين المكان، كما استغلت أيضا، مجمل الروايات الشفهية المتواترة، ممّن لهم خبرة وتجربة بالمجال والإنسان التنبكتي، أجانب كانوا أم من الأهالي، الشيء الذي جعل من مونوغرافيته عبارة عن تسجيلات وثائقية، تُصوِّر بدقة متناهية ما يثير الملاحظة حقا، بحيث قلّما نجد لها نظيرا في باقي مصادر تاريخ بلاد السودان الأخرى، سواء المحلية منها أو الأجنبية. لكن، ورغم أهمية هذا المصنف المونوغرافي، في التأريخ لـ "حاضرة تنبكتُ" بشكل خاص والسودان الغربي بشكل عام، إلا أننا نجد هذا التراث العلمي، ظلّ لحقبة طويلة، مغمورا، خامل الذكر، بعيدا عن كل إشارة؛ لأسباب مختلفة ومتعددة، منها: النظرة السلبية للإنتاج الكولونيالي، الذي يُوصف في الغالب الأعم، وإلى عهد قريب، بأنه تحصيل حاصل، لا يقدّم ولا يؤخّر، أو أداة للهيمنة والسيادة على الآخرين، إضافة إلى مشكل اللغة، ثم صعوبة الوصول إلى هذه النوعية من المصادر النفيسة التي تبقى في المجمل حبيسة رفوف الخزانات والربائد الأجنبية.

ومهما يكن من أثر، فإن مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، تنفرد بعدة خصائص ومميزات، أمكن إجمالها على الشكل التالي:

أ: من حيث طبيعة المواضيع المدروسة

درس المؤَلِّفْ جملة من المواضيع المتنوعة ذات الصلة بالتاريخ، والسياسة، والدين، والاقتصاد، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، وغيرها، لكن ما يميز هذا الكتاب أكثر، هو دراسته المستفيضة للمواضيع الاجتماعية، مثل القضايا المرتبطة بالتركيبة السكانية، والاستهلاك، واللغة، والتغذية، والأسرة، والعادات، والتقاليد، والصحة،

واللباس، وسلوك السكان المحليين، والممارسات الدينية والروحية، هذا دون نسيان الأنشطة الفلاحية والثروات الطبيعية والحيوانية، التي تتمتع بها حاضرة تنبكتُ، كما أنه أرَّخ لمنسيي التاريخ، ولمن لا تاريخ لهم، من: بسطاء، ومستضعفين، ومهمشين، وغيرهم، الشيء الذي جعل من مونوغرافيته المذكورة، مجال ''التاريخ اللاّمفكر فيه''، أو مجال ''التاريخ المنسي''، وهكذا أفرز لنا هذا الكتاب، منتوجا علميا، بالمعنى والكلمة، جدير بالاهتمام والدراسة.

ب: من حيث الفترة الزمنية المدروسة

عالج صاحب التأليف فترة زمنية دقيقة ومعقدة، وهي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، أما عن أهمية هذه الفترة فتكمن في كونها تؤرخ لمرحلة تاريخية، سماتها الأساسية هي تزايد واشتداد الضغوط والأطماع الاستعمارية الفرنسية على إفريقيا الغربية، وقد توجت هذه الضغوط، طبعا، بالسيطرة الفرنسية الكاملة على حاضرة تنبكتُ في 6 يناير 1894م، وقد آثار هذا الحدث المأسوي بطبيعة الحال، ردود أفعال كثيرة، سواء في الأوساط السودانية، أو العربية، أو الإسلامية.

ج: من حيث اللغة، والأسلوب، والمنهجية المتبعة

اعتمد صاحب التأليف أسلوبا ومنهجا علميا واضح المعالم، فهو لم يعتمد أسلوب الاستهزاء والسخرية، أو أسلوب الدهشة والغرائبية، الممزوج بطابع النزعة الأوروبية الاستعلائية، التي تحاول احتقار الآخر، والتنقيص من شأنه وقيمته، بل نجده يعتمد أسلوبا علميا صارما، أساسه الدقة والموضوعية. ويؤكد هذا القول، الباحث حسن أميلي والباحثة زوليخة بنرمضان، حيث ذكرا بأنه "**بالنظر للقيمة العلمية للكتاب من حيث مادته المتنوعة ومنهجه الدقيق وصفا وتحليلا، تكون المدرسة التاريخية الفرنسية الإفريقية قد تجاوزت مع نهاية القرن 19م مرحلة المغامرات الكشفية الفردية والجماعية، المدنية والرسمية (...) ليسد فراغا مهولا (...) مصححا بذلك الزلات**

التي وقع فيها [مواطنوه]"[13]، أما عن منهجيته وطريقته المتبعة في تحرير صفحات كتابه، فهي تستند بالأساس إلى مشاهداته ومعايناته الشخصية، إضافة إلى ما حصل عليه من بيانات ومعطيات، أثناء تحرياته الميدانية في عين المكان، أي في بلاد السودان الغربي، والذي خبر شؤونه وأحواله، كيف لا؟ وهو الذي عاش فيه لسنوات طوال[14].

د: من حيث أهمية الكتاب في الأوساط الاستعمارية والعلمية

استطاع هذا الكتاب أن يفرض وجوده منذ اللحظة التي خرج فيها من دور النشر والطباعة إلى دور المكتبات والخزانات العلمية، حيث بفعل وزنه العلمي المتميز، وكذا بفعل مادته المتنوعة والمضبوطة، "**تمكن من فرض أهميته في الأوساط الاستعمارية الفرنسية (...) في وقت لم يتم فيه طبع التواريخ السودانية المحلية الثلاث "تذكرة النسيان" (1910)، لمؤلف مجهول، و"تاريخ الفتاش" لمحمود كعت وحفيده (1911)، و"تاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي (1913)، مفاتيح الذاكرة السودانية التي عززت لاحقا الكتابات الاستعمارية والأكاديمية**"[15].

والخلاصة، التي تتحصل لدينا من هذه المعطيات، أن مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار حول تاريخ حاضرة تنبكتُ، منارة بلاد السودان الغربي، تعتبر بحق، من بين التصانيف المهمة والقليلة التي حاولت دراسة الحاضرة المذكورة، بكيفية أصيلة وعميقة، من أجل تكوين مادة معرفية دقيقة لدوائر الحركة الاستعمارية والأوساط العلمية والاستكشافية الفرنسية. وهكذا، استفاد هؤلاء مما تحتوي عليه من بيانات متنوعة، ومعطيات عالية القيمة؛ كمّا ونوعا، كيف لا؟ وهي لامست جوانب كثيرة من تاريخ المنطقة وحضارتها، وبنياتها الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والدينية، والروحية، والعمرانية.

المبحث الثاني: حاضرة تنبكتُ (الموقع والمظهر العام للمنطقة)

تتضمن مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار بيانات مهمة ودقيقة، حول العناصر الجغرافية، والطبيعية، والمناخية، والهيدروغرافية لحاضرة تنبكتُ، وهي معلومات تمتح وتستقي قيمتها من كونها عبارة عن تحريات وأبحاث ميدانية، وفي عين المكان، الشيء الذي يجعلنا نطمئن إلى نتائجها ودقتها وصدقها. وهكذا يُشير الأب الآنف الذكر أن حاضرة تنبكتُ تقع بين خط عرض 16° و43 شمال خط الاستواء، وخط الطول 5° شرق غرينيتش[16]، ويضيف بأن حاضرة تنبكتُ شيدت عند جانبيْ تلَّة أو كَثِيب رملي، ينحدر اتجاهه من ناحية الشرق إلى الغرب، وعلى منحدر جنوبي لكَثِيب رملي آخر موازي للأول وإلى الشمال منه. وعليه تتخذ المنطقة شكل مثلث قاعدته عند الجنوب[17].

إلى جانب هذه المعطيات، يذكر المستكشف والمبشر السالف الذكر، بأن حاضرة تنبكتُ تعرف مجموعة من الهضاب الحديدية بمتوسط ارتفاع يتراوح ما بين 90 و100 متر، كما تعرف أيضا سلسلة جبلية مرئية طويلة، تمتد من الشرق من بحيرة ''فاگيبين'' (Faguibine) وبحيرة ''تيلي'' (Télé)[18]. وإلى جانب ما سبق ذكره، أورد الأب أوگوسطان پروسپير هاكار تفاصيل مهمة عن الموارد المائية التي تتمتع بها حاضرة تنبكتُ والمناطق المجاورة لها، وممّا ينبغي تسجيله بخصوص هاته المعطيات، هو أن الحاضرة المذكورة تعتمد أساسا وبشكل كبير على مياه الأنهار والبحيرات، حيث يُبين صاحب التأليف أن نهر النيجر يمثل "**روح السودان وقلبه**"[19]، هذا النهر الذي ينبع من شمال جمهورية ليبيريا عند جبل ''كوكونوتي'' (Kokonaute)، والذي يتدفق بداية نحو ناحية الشمال الشرقي إلى أن يبلغ حاضرة تنبكتُ، ثم ينحرف نحو الشرق إلى أن يصل إلى ''گاو'' (Gao) أو ''گوگو'' (Gogo)، ومن هذه المنطقة يستمر تدفقه في اتجاه جنوب الجنوب الغربي ليصب في خليج البنين[20]، كما أن هذا النهر توجد روافده الأساسية على

الضفة اليمنى حيث رافد ''باني'' (Bani)، وأيضا على الضفة اليسرى حيث رافد ''سوكوتو'' (Sokoto) ورافد ''بينووي'' (Bénoué)[21].

ويُخبرنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن نهر النيجر له أسماء عديدة ومختلفة، وذلك حسب المناطق التي يخترقها ويتدفق فيها، حيث نجد مثلا أنه في بلاد البامبارا (Pays Bambara) يُطلق عليه اسم ''دجوليبا'' (Djoliba)، وفي بلاد السنغاي (Pays Songoy) يُطلق عليه اسم ''إيزا'' (Isa)، وفي بلاد التوارگ (les Touareg) يُطلق عليه اسم ''إيگيريُّو'' (Egherreo)[22]. إلى جانب نهر النيجر، توجد في جميع أنحاء حاضرة تنبكتُ بعض البرك الطبيعية أو التي هي من صنع الإنسان المحلي، حيث توفر هذه الأخيرة كميات معتبرة من المياه للساكنة المحلية، بيد أن هذه البرك أثناء فيض النهر السالف الذكر، يصيبها الجفاف، وهو ما حصل فعلا في سنة 1898م، حيث جفت تلك البرك تقريبا، لدرجة أن الساكنة لم تجد مياها صالحة للشرب إلا بالكاد[23].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وفيما يتعلق بالمناخ والأحوال الجوية، يذكر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن مناخ حاضرة تنبكتُ هو "**مناخ (...) صحي نسبيا، لأنه جاف**"[24]، وذلك رغم أن المنطقة تعرف فترات مطيرة للغاية بين شهريْ يونيو وأكتوبر، وتصل كميات التساقطات في السنة إلى 250 ملم، وتتراوح عدد العواصف الرعدية والأعاصير ما بين 15 و20 خلال الأشهر الأربعة المذكورة آنفا[25]، وكلها تهب من جهة الشمال الشرقي، ومن جهة الشرق، ومن جهة الجنوب الشرقي، وتعتبر العواصف الآتية من الشمال الشرقي الأكثر عنفا وخرابا، حيث غالبا ما تُحدث هاته العواصف أضرارا كبيرة وفادحة في حاضرة تنبكتُ من خلال الإطاحة بالجدران التي تغمرها الأمطار، وكانت أقوى عاصفة لوحظت منذ أربع سنوات حسب الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، هي العاصفة التي حدثت في يوم 30 يوليوز 1898م، إذ بلغت تقريبا كمية التساقطات آنذاك إلى حوالي 63 ملم[26]. أما الحرارة فتتراوح درجاتها في السنة ما بين 50° إلى 4°

في الظل، بينما نجدها ترتفع بشكل مهول في الفترة ما بين أبريل وأكتوبر، كما أن الحاضرة المذكورة تسودها في الفترة ما بين أكتوبر وأبريل رياحا شرقية، والتي تتحول بسرعة إلى رياح غربية[27]، كما تشهد الحاضرة من وقت لآخر (رياح القبلي)، الذي يهب من جهة الشمال، والذي يلهب الجو بشكل كبير، وما يزيد من لهيب هذا الجو الحار والساخن، هو غياب الجبال في الحاضرة المذكورة[28].

وبموازاة مع ما تقدّم، يحتفظ لنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار بمعلومات وايماءات عديدة، تتعلق أساسا حول الغطاء النباتي الموجود في حاضرة تنبكتُ والمناطق المجاورة لها، وهكذا يصف الأب السالف الذكر ذلك الغطاء النباتي بالفقير والرديء، حيث يشير إلى أن أفضل وأجمل الأشجار في الحاضرة المذكورة لا تتجاوز خمسة أو ستة أمتار[29]، ويضيف بأن المنطقة المسماة بـ "كيسو" (Kissou)، والمنطقة المسماة بـ "كيللّي" (Killi) هي أكثر المواقع السودانية غنى بالأشجار والنباتات والأعشاب[30].

ومن شأن ما أثبتناه من معطيات أعلاه، أن يُعطينا فكرة واضحة وجلية حول الأهداف البارزة التي جعلت المستكشفين والرحالين الفرنسيين يجوبون هذه المجاهل الإفريقية، وهي جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والأخبار، مهما بدت تافهة أو بسيطة أو سطحية، بيد أن الدوائر الامبريالية الفرنسية وقتذاك، اعتبرتها بيانات ثمينة ونادرة ومهمة، وصالحة حقا لتوظيفها في إعداد خطة للتغلغل في المجالات السودانية، التي يمكن أن تكون في يوم من الأيام جزءً من الإمبراطورية الفرنسية الشاسعة الأطراف.

المبحث الثالث: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية في حاضرة تنبكتُ

تناول الأب أوگوسطان پروسپير هاكار جملة من القضايا، ذات البعد الاجتماعي، والاقتصادي، والعلمي، والديني، لحاضرة تنبكتُ، وهي تفاصيل، غلب عليها طابع التجسس والاستخبار ومراكمة المعلومات، هي في المجمل، عبارة عن شتات من الأخبار،

توحّدها رغبة استجلاء تاريخ بلاد السودان الغربي وحضارته، وهكذا كان بإمكان هذه البيانات المتنوعة التي استجمعها الأب الآنف الذكر، أن يطويها الزمن، وتحشر في غياهب النسيان، لولا أنه اختزنها في ذاكرته، ودوّنها في مؤلفه.

المطلب الأول: الحياة الاجتماعية

الفرع الأول: السكان والفئات الاجتماعية

يُشير الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن ساكنة حاضرة تنبكت، تنقسم إلى ثلاثة عناصر مختلفة ومتمايزة، الأولى هي ''عنصر السنغاي'' (les Songoy)، والثانية هي ''عنصر الأرمى'' (les Arma) أو ''الرماة'' (Rouma)، ويبين أن العنصر الأول هو أكثر أصالة وعراقة واستقرارا بالحاضرة المذكورة، قبل مجيء العنصر الثاني القادم من بلاد المغرب الأقصى[31]، كما تعرف المنطقة أيضا عنصر ثالث، هو ''عنصر الألفا'' (Alfa) أو ''العلماء'' (les Savants)، هذه الفئة الأخيرة ليست متجانسة إثنيا، بل هي فئة قَدِمَتْ من مختلف أقطار المعمور، إما للدراسة أو التدريس؛ ورغم ذلك فهي تشكل طبقة مؤثرة جدا، وذات نفوذ قوي[32].

وفي ذات السياق، أورد الأب أوگوسطان پروسپير هاكار هاكار بيانات دقيقة حول عدد ساكنة حاضرة تنبكتُ، وتحديدا في نهاية القرن التاسع عشر، وبالضبط في سنة 1898م، حيث ذكر أن ساكنة الحاضرة المذكورة تنقسم إلى ساكنة ثابتة (la Population Fixe)، وأخرى متحركة (la Population Flottante)، الأولى تقدر بحوالي 5000 نسمة، بينما الثانية تقدر بحوالي 4000 نسمة، هذه الفئة الأخيرة أي الساكنة المتحركة، نجدها تتألف أساسا من: (التجار العرب، والمغاربة، والطرابلسيين، والغدامسيين، وتجار تندوف، وتاجاكانت، وتوات)، وجميع هذه العناصر تأتي إلى حاضرة تنبكتُ، لقضاء بضعة أشهر كل عام من أجل التجارة أو التبضع[33].

الفرع الثاني: الحياة الأسرية

يـذكر الأب أوگوسـطان پروسـپير هاكـار أنـه في حاضـرة تنبكـتُ، وعلـى غـرار بقيـة الشعوب الإسلامية، فإن تعدد الزوجات يُعتبر من الأمور العادية، بل تُشكل في كثير من الأحيان (قاعدة)، وهكذا يُحدد مدى ثراء كل رجل في حاضرة تنبكتُ من خلال ما يتوافر عليه من زوجات، بينما الفقير عندهم هو كل شخص لا يحظى إلا بزوجة واحدة، ويُخبرنا كذلك بأن (الحريم) لا يعشن في نفس المنزل، حيث تحظى كل زوجة بمنزل خاص تعيش فيه مع أطفالها[34]، وحسب نفس المؤلف، فإن الطلاق شائع جدا في حاضرة تنبكتُ، حيث بمجرد أن تتوقف المرأة عن الإثارة والإعجاب، يتم إهمالها في منزلها، وغالبا مع أطفالها أيضا[35].

الفرع الثالث: السكن والمأوى

يُستشف من معطيات وبيانات الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أنه كان مهتما بشكل كبير بالمنازل والبيوت المشيدة في حاضرة تنبكتُ، حيث خصص لها حيّزا مهما في مونوغرافيته، وهكذا يشير إلى أن أغلبية الدور والمساكن الموجودة في الحاضرة المذكورة، هي إما مبنية بالطوب (Briques)، أو بمادة الصلصال المجفف في الشمس (Poignées d'argile Séchées au Soleil)[36]، وممّا يلفت النظر بهذا الصدد، هو عدم استعمال الساكنة المحلية مادة الحجر في عملية البناء، والسبب راجع بالأساس حسب الأب السالف الذكر إلى ندرة هذه المادة في حاضرة تنبكتُ[37]، ويضيف بأن الهندسة المعمارية في الحاضرة المذكورة تُعتبر في المجمل بسيطة وعادية للغاية، بيد أنه لم يفته التأكيد على أن بعض البيوت تتوفر على مظهر مرضي، بل وتشكل مشهدا لطيفا ورائعا نسبيا للعين، حيث الواجهة محاطة بأعمدة كبيرة وضخمة، وحينما يتوفر البيت أو المنزل على (طابق)، يكون مزينا بأعمدة صغيرة، تتخلله نوافذ مشيدة بدقة ومهارة، يغلب عليها الطابع والأسلوب (الموريسكي)[38].

علاوة على هذه المعطيات المهمة، يذكر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن ثلث المنازل التي تعود إلى علية القوم في حاضرة تنبكتُ مجهزة تجهيزا جيدا، وغالبا ما كانت

هذه الدور تتكون من عدة غرف، حيث نجد غرفة تدعى "سيفا" (Sifa)، غالبا ما نجد فيها بعض العبيد ينتصبون هناك واقفين، وربما في بعض الأحيان سيد المنزل، وهي غرفة مخصصة للزيارات، ثم إلى جانب هذه الغرفة، هناك غرف أخرى خلفها محجوزة أيضا للزيارات، كما تتوفر هذه المنازل على ساحات داخلية واسعة نوعا ما، ومحاطة بغرف خاصة بالعنصر النسوي[39]، وغالبا ما كان العبيد يقومون بسحق الدخن والقمح في هذه الساحات، في حين نجد النسوة يقمن بتخليص القطن من بذوره، ومراقبة المطبخ واستقبال الزيارات، إضافة إلى هذا، نجد أيضا أن هذه المنازل تتوفر على السطوح، تنفتح عليها شقتان أو ثلاث تشكل طابقا، هذا هو مكان استقبال الأصدقاء أو الشخصيات المميزة والنافذة[40].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، يُبين الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن منازل الساكنة الفقيرة والمعوزة في الحاضرة المذكورة، غالبا ما كانت عبارة عن أكواخ بسيطة مصنوعة أساسا من مادة القش، أما عبيد التوارگ، فهم الآخرون، لا يتوفرون إلا على خيام منخفضة مصنوعة من مادة الجلد[41]. والجدير بالملاحظة هنا، هو أن أثاث منازل ودور حاضرة تنبكتُ يغلب عليه طابع البساطة وعدم التكلف، هذا الأثاث يتكون في الغالب من بعض المستلزمات والأدوات المنزلية، مثل: الفرش، والأغطية، وأدوات الطبخ، وصناديق مصنوعة من الخشب، يضعون فيها ملابسهم، كما يضعون فيها أيضا الأشياء الثمينة، مثل: النقود والمجوهرات، أما السرير فغالبا ما يتكون من سجادة وبعض البطانيات الممدودة على الحصير أو على "الكارا" (kara)، هذه الأخيرة، هي عبارة عن منصة من الخشب أو من التراب[42]، وتؤثث الوسائد والحصير مختلف الشقق، وهي غنية من حيث البطانيات المصنوعة من الصوف المتعدد الألوان، كما أن بعض الساكنة وخاصة فئة التجار، غالبا ما كانوا يحتفظون بغرفة أو أكثر، حيث يستخدمونها كمخازن لهم[43].

الفرع الرابع: العادات الغذائية

أورد الأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار بيانات وارتسامات عديدة وثمينة حول العادات الغذائية بكل مكوناتها وتلاوينها وعناصرها في الحاضرة المذكورة، ويظهر بجلاء أن الأطعمة والأشربة التي كانت تؤثث المائدة التنبكتية في الفترة الزمنية المذكورة أعلاه، يغلب عليها طابع البساطة والتقشف، وهو طابع يلائم ظروف ونمط العيش في حاضرة تنبكتُ، وهي ظروف تتسم بقساوة البيئة وصعوبة المجال، وقمين بالإشارة في هذا السياق، أن الغذاء الرئيسي لمعظم سكان حاضرة تنبكتُ يتجلى بالأساس في مادتيْ الدخن والأرز، حيث لا تنتج المدينة سوى القليل من الحبوب أو لا تُنتجها على الإطلاق، حيث يتم استيرادها من مناطق عدة، مثل: ''دجيمبالا'' (Djimballa)، و''جني'' (Djenné)، و''كيسو'' (Kissou)، وغالبا ما كانت تصل كميات هائلة من جميع أنواع الدخن والأرز من منطقة ''كابارا'' (Kabara) في شهريْ نونبر ودجنبر[44].

وممّا ينبغي لفت النظر إليه بهذا الشأن، هو أن مادة القمح كانت تشكل غذاءً مميزا للطبقة الغنية والميسورة، بينما الخضروات والفواكه فهي تكاد تكون غير معروفة في حاضرة تنبكتُ، أما لحوم الجاموس والغنم والماعز فكانت من بين المواد الاستهلاكية التي يقتات عليها سكان حاضرة تنبكتُ، خاصة وأن سعرها كان منخفضا وزهيدا نسبيا[45]. وإلى جانب ما سبق، شكلت أسماك نهر النيجر، هي الأخرى، مادة استهلاكية مهمة بالنسبة للطبقة العاملة وحتى للفقراء والمعوزين، بينما كان الميسورون منهم يزدرونها ويمقتونها، والسبب يرجع وفقهم إلى أن تلك الأسماك تصل إلى حاضرة تنبكتُ في حالة يرثى لها، حيث تصل نتنة وجافة وفاقدة لكل طعم[46].

ونستدل من بعض الإشارات الأخرى، أن ساكنة الحاضرة السالفة الذكر كانت تقتات أيضا على لحوم الصيد والطرائد، ومن ضمن هذه الأنواع نجد كل من: الأرانب البرية، والغزلان، والظباء، والدجاج، والحمام. ولحوم هذه الأخيرة كانت رائجة وبوفرة كبيرة في أسواق الحاضرة المذكورة[47]، وحسب إحدى الإشارات التي دوّنها الأب أوگوسطان

بروسبير هاكار فإن فقراء حاضرة تنبكتُ كانوا أيضا يَتَغَذَّوْنَ على بعض الأعشاب والثمار البرية غير القابلة للاستهلاك البشري، والتي لا تأكلها عادة إلا الماشية، وذلك لأجل سد الرمق ومصارعة الجوع، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، عشبة تدعى "الداني" (les Daney)، هذه العشبة كان يتم استغلال بذورها في إعداد بعض الوجبات الغذائية[48].

بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، يحفل نص "مونوغرافية تنبكتُ" بمعطيات عديدة حول ما يُمكن أن نُسميه بتقاليد المائدة وآداب الأكل بالحاضرة المذكورة، وممّا أمكن التقاطه من إشارات وشهادات في هذا الجانب، ما ذكره الأب أوگوسطان بروسبير هاكار، حيث يبين أن ساكنة حاضرة تنبكتُ كانوا يتناولون ثلاثة وجبات رئيسة مختلفة في اليوم، الأولى هي وجبة الفطور أو ما يسمى في اللسان المحلي بـ"الجير كاري" (le Tjirkare)، هذه الوجبة تتناولها الساكنة عند حوالي الساعة الثامنة صباحا، وغالبا ما كانوا يتناولون فيها بقايا وجبة الليلة السابقة، أو يتناولون فيها الخبز المبلل في الزبدة والعسل، أو حساء يدعى في اللهجة المحلية بـ "الدون" (Don)، وهو حساء يتألف من الطحين أو الدهن أو القمح والتوابل، ثم وجبة ثانية تدعى "التيركوزي" (le Tjirkose)، هذه الوجبة تتناولها ساكنة حاضرة تنبكتُ في حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الزوال، وأخيرا وجبة المساء في حوالي التاسعة ليلا، والمسماة في اللسان المحلي بـ "الهاورو" (le Haourou)، بالإضافة إلى هذه الوجبات، هناك وجبات أخرى تتناولها الساكنة المحلية منها وجبة "التازو" (le Taso) أو الكسكس[49].

أما بالنسبة للأشربة المنتشرة في حاضرة تنبكتُ في الفترة الزمنية المذكورة أعلاه، فيتضح بجلاء من خلال نص "مونوغرافية تنبكتُ"، أنها كانت تتمثل أساسا في الماء لا غير، ويُخبرنا في هذا الصدد الأب أوگوسطان بروسبير هاكار أنه بفعل تحريم الشريعة الإسلامية شرب ومعاقرة الخمور، فإن الساكنة المحلية يكتفون فقط بشرب الماء الذي يحتفظون به غالبا في جرار طينية كبيرة، بيد أنه في المقابل يُشير إلى أن هناك مشروب محلي يُستهلك

بكثرة، هذا الأخير، كان يتم إعداده من الدخن أو العسل أو سيقان النجيلية المعروفة في اللسان التنبكتي بـ "الكوندو-هاري" (koundou-Hari)، وتعتقد الساكنة المحلية بأن هذا المشروب يكون أكثر متعة وروعة وفائدة حينما يسكّر[50]. إضافة إلى هذا المشروب، هناك مشروب آخر مسكّر ومنعش في نفس الآن، حسب شهادة الأب السالف الذكر، دائما، هذا المشروب يُصنع من قصب السكر، حيث يحتوي ساق هذا القصب الأحمر اللون على عصير من خلاله يتم إعداد ذلك المشروب[51]. وممّا يلفت الانتباه في هذا السياق، أنه في حاضرة تنبكتُ كانت بعض الأشربة حكرا فقط على الفئات الغنية، وخاصة مشروب الشاي الذي كان من أهم المشروبات الفاخرة، التي تقبل عليها الفئة الميسورة بنهم منقطع النظير، بينما نجد أن مشروب القهوة قليل ما يُستهلك في حاضرة تنبكتُ والمناطق المجاورة لها، والسبب راجع بالأساس إلى قلة البن وندرته في الحاضرة السالفة الذكر[52].

وفي الأخير، تجدر الإشارة، إلى أن فئة قليلة من ساكنة حاضرة تنبكتُ الثرية، كانت تقبل على تناول واستهلاك بعض الأغذية والأطعمة الفاخرة، حيث وصفها الأب أوگوسطان پروسپير هاكار بـ "الأغذية الكمالية" (les Accessoires de L'Alimentation)، وهي في المجمل، عبارة عن حلويات ومملحات، وهي كثيرة ومتنوعة، منها المسماة بـ "الكاجي" (les Katji)، و"الفينتا" (les Finta)، و"الفيتاتي" (les Fitati)، و"الكولو" (les Kolo)، و"الفورمي" (les fourme)، و"النيمتي" (les Nempti)، و"الجيميتا" (les Djimita)، وكل هذه الأنواع من الحلويات والمملحات السودانية التنبكتية تصنع عادة من: طحين القمح، والعسل، والأرز، والفاصولياء، والدخن، والفلفل الحار[53].

الفرع الخامس: اللباس والزينة

أورد الأب أوگوسطان پروسپير هاكار تفاصيل عديدة حول الألبسة والأزياء التي كان يرتديها إنسان تنبكتُ، والعادات والتقاليد المتبعة في كيفية ارتدائها، كما لم يفته الإشارة

إلى لباس العبيد وأدوات الزينة التي يستعملها الرجل وحتى المرأة في حاضرة تنبكتُ وبعض المناطق المجاورة لها. بالنسبة لملابس الرجل، يُشير الأب السالف الذكر أنها تتكون عادة من ''سيبي'' (Sibi)، وهو عبارة عن سروال واسع شيئا ما، وغالبا ما يكون مصنوعا من القطن الأزرق أو الأبيض، ثم من ''تيلبي'' (Tilbi)، وهو عبارة عن لباس واسع مفتوح الجانبين، مخيط فقط على الأطراف السفلية، كما يحتوي على جيب كبير عند الصدر[54]، هناك لباس آخر يدعى ''المصاورية'' (Messaouria)، وهو عبارة عن قميص ذو أكمام واسعة[55]، إضافة إلى هذا، يرتدي الرجل في حاضرة تنبكتُ نوعا من العمامة، هي على شكل قبعة طويلة مصنوعة من القطن لونها إما أصفر أو أزرق، والبعض الآخر يرتدي قبعة يونانية بيضاء اللون تحت العمامة[56]. وفي خصوص النّعال والأحذية التي ينتعلها رجل حاضرة تنبكتُ، يذكر الأب الآنف الذكر أنها تكمن في نوع من الخفاف العربية، المصنوعة من الجلد ذو اللون الأصفر[57]، بينما يُبين أن أثرياء الحاضرة المذكورة غالبا ما ينتعلون أحذية طويلة صفراء أو حمراء اللون، في حين نجد أن الفقراء وهم غالبية حاضرة تنبكتُ يمشون حفاة، أو ينتعلون نعلا، هو عبارة عن بطانة من الجلد مربوط بالقدمين بأحزمة جلدية، يُطلق عليها في اللسان المحلي التنبكتي بـ ''الجيلامبو'' (Tjelambou)[58].

في المقابل، نجد أن ألبسة النساء التنبكتيات غالبا ما كانت تتجلى في ثوب أو قماش مصنوع إما من الكتان، أو من القطن، أو من الحرير، وعادة ما يتم استيراد هذه الأنواع من الأثواب من أوروبا الغربية، كما يرتدين كذلك ''الصاية'' (la Saya) أو ''المصاورية'' (Messaouria)، ذات الأكمام الطويلة والواسعة التي تنتهي بذُرْوة[59]. كل هذه الملابس التي ترتديها النساء في حاضرة تنبكتُ، هي مزينة بشكل أو بآخر بالحرير الأحمر، أو الأبيض، أو الأصفر، أو الأخضر، وذلك وفق ثروة وإمكانيات تلك النسوة[60]. أما فيما يتعلق بلباس الرأس فعادة ما نجد أن نساء الحاضرة المذكورة يخرجن برؤوس عارية أو مغطاة بغطاء أسود اللون[61]، بينما ينتعلن على مستوى أرجلهن نعالا

ذات بطانة رقيقة مزركشة بالحرير[62]. أما فيما يخص ألبسة العبيد، فهي تتألف أساسا من ألبسة جلدية، تكمن في الغالب الأعم من جلباب طويل ضيق يغطي الكتفين والجسم حتى الركبتين، هذا بالنسبة للرجل العبد، في حين ترتدي الإماء ''تنورة'' (Jupon)، هي الأخرى مصنوعة من الجلد، تتكون عادة من قطع متنوعة الألوان، مزينة بشرائط طويلة ذات أشكال ورسوم مختلفة[63].

وبموازاة مع ما تقدّم، يذكر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن الرجال في حاضرة تنبكتُ لا يتزينون إلا بالخواتم والدمالج، المصنوعة إما من الحجر، أو الرخام، أو الصلصال، والمزدانة باللون الأخضر، أو الأبيض، أو الأحمر[64]، بينما نجد النسوة التنبكتيات يتزيّنّ بمجوهرات وحلي عديدة ومختلفة، مثل: الخواتم، والدمالج، والخلاخل، المصنوعة من النحاس، أو الفضة، والمرصعة والمزدانة بالأحجار الكريمة[65].

الفرع السادس: الصحة والأمراض

سجّل الأب أوگوسطان پروسپير هاكار بيانات قليلة حول الأمراض والأوبئة التي كانت متفشية ومنتشرة بين ساكنة حاضرة تنبكتُ، وهكذا أورد معطيات عابرة متناثرة هنا وهناك، لا تسمح مطلقا بإعطاء تصور واضح ودقيق حول الوضعية الصحية في الحاضرة المذكورة، خاصة في الفترة الزمنية التي تهمنا هنا، أي أواخر القرن التاسع عشر، ومهما يكن من أثر، فإن الأب السالف الذكر يُخبرنا بأن مناخ تنبكتُ صحي نسبيا نظرا لشدة جفافه[66]، ورغم ذلك يُبين أنه في حاضرة تنبكتُ توجد بعض الطفيليات الخطيرة التي تسبب بعض الأمراض والعلل المتباينة الخطورة، ومنها ''دودة غينيا'' (le Ver de Guinée)، هذه الأخيرة، كما يتبين من إشارات وإيماءات الأب السابق الذكر، تنجح في كثير من الأحيان في شل وتشويه المريض المهمل[67]، ثم هناك ''الديدان المعوية'' (les Vers intestinaux) التي لا تقل خطورة عن الطفيلية الأولى، وهي الأخرى منتشرة بشكل مهول في الحاضرة المذكورة، وتسبب مجموعة من المشاكل الصحية[68].

الفرع السابع: العادات الاجتماعية

أورد الأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار مجموعة من المعطيات الثمينة والنادرة، حول العادات الاجتماعية الرائجة والمألوفة في حاضرة تنبكتُ، وهي عادات كثيرة ومتنوعة، ومن بين هذه العوائد المتفشية بين ساكنة حاضرة تنبكتُ، وعلى نطاق واسع، ''عادة حمل السلاح''، و''عادة التدخين''، و''عادة وسم الندب على الوجه ونقش الخدين والجبهة عند النساء''، و''عادة حمل العصا والتمائم عند الخروج من البيت''.

أ: عادة حمل السلاح

يُخبرنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن حمل السلاح يشكل إحدى أهم العادات الاجتماعية المألوفة والشائعة في حاضرة تنبكتُ، ومنذ أزمنة قديمة، حيث يُشير إلى أن مجمل ساكنة هذه الحاضرة تَعتبر حمل السلاح والتجوال به عادة جيدة، ويرجع السبب الرئيسي لانتشار هذه العادة بينهم، هو الخشية من الاصطدام مع التوارگ الذين يبتزونهم ويسيئون لهم في كل وقت وحين، ومن بين أهم أنواع الأسلحة المنتشرة في حاضرة تنبكتُ في أواخر القرن التاسع عشر، نجد كل من: الرماح، والسيوف، والبنادق[69].

ب: عادة شرب الدخان

يُعتبر شرب الدخان في حاضرة تنبكتُ من العادات الاجتماعية الرائجة والمألوفة بشكل منقطع النظير، حيث يتبين بجلاء من خلال ''مونوغرافية تنبكتُ''، أن كل فئات هذه الحاضرة، كبارا وصغارا، إناثا وذكورا، كانوا يستهلكون التبغ، ويتعاطونه علانية، وفي كل وقت وحين[70]، وما زاد من الإقبال على هذه العشبة في تلك الحاضرة السودانية، هو كثرتها، حيث يُخبرنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار في هذا الصدد أنه في تنبكتُ وحتى في المنطقة الشرقية منها، وتحديدا في مدينة ''بامبا'' (Bamba)، يُعتبر التبغ من

المحاصيل الهامة والرئيسة، إذ تستهلك منه المنطقة المذكورة أكبر جزء منه، أما الباقي فيتم تصديره إلى قرى الجنوب والجنوب الغربي وإلى بلاد التوارگ[71].

ج: عادة وسم الندب على الوجه، ونقش الخدين والجبهة عند النساء

تُمثل عادة وسم الندب على الوجه بالنسبة للنسوة التنبكتيات، من العادات الاجتماعية المتوارثة عبر الأسلاف، وعليه يَعتبرون وسم الندب على الوجه من صميم التقاليد المحلية الأصيلة والتي وجب المحافظة عليها، حيث يُحدثنا في هذا السياق الأب الآنف الذكر أن هذه العادة، تُعدّ من العلامات المميزة لأهالي حاضرة تنبكتُ، وهكذا كانت نساء تلك الحاضرة، يخضعن لعملية ندب صغيرة، وعمودية في وجوههم، حيث يبلغ طولها حوالي 1.5 سم عند التقاء العينين، كما يقمن كذلك إلى جانب وسم الندب على الوجه بنقش الخدين والجبهة بخطين أو ثلاثة[72].

د: عادة حمل العصا عند الخروج من البيت

يذكر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن الرجال في حاضرة تنبكتُ يحافظون بشكل مثير على عادة حمل العصا، حيث يُشير إلى أنهم لا يخرجون من بيوتهم إلا وهم حاملون لها، هذه الأخيرة، غالبا ما تكون طويلة، ومزينة بشرائح من النحاس[73].

هـ: عادة حمل التعاويذ والتمائم

يُبين الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن حمل التمائم والتعاويذ من قِبل ساكنة حاضرة تنبكتُ، تُعتبر من العوائد الاجتماعية العادية والمتفشية بشكل كبير في الحاضرة المذكورة، حيث يحملون معهم تعاويذ كثيرة أو قليلة، ومن مختلف الأشكال والأحجام[74].

المطلب الثاني: الأنشطة الاقتصادية

يبدو من خلال المعطيات والارتسامات، التي دوّنها الأب أوگوسطان پروسپير هاكار في إطار مونوغرافيته السالفة الذكر، أن حاضرة تنبكتُ العاصمة الروحية لبلاد السودان الغربي، كانت تتوفر على إمكانات اقتصادية مهمة ومتنوعة، سواء من ناحية الثروات

الفلاحية (زرعا وضرعا)، أو من ناحية الإمكانات التجارية الكبيرة التي تتميز بها (الأسواق، والحرف، والصنائع، والمنتوجات)، الشيء الذي جعل من الحاضرة السودانية المذكورة آنفا، مركز وقطب اقتصادي وتجاري بامتياز.

الفرع الأول: الإنتاج الفلاحي

أ: الثروة الزراعية

يظهر من بيانات ومعلومات الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن حاضرة تنبكتُ كانت تتمتع في أواخر القرن التاسع عشر بثروات فلاحية مهمة، ومنتوجات زراعية مختلفة، وقد ساعدها في ذلك ما تتعرض له الحاضرة من فيضانات لمدة طويلة، تتراوح ما بين 7 أو 8 أشهر في السنة، وهو ما انعكس بالإيجاب على أنشطتها الفلاحية، ومن بين المنتوجات الفلاحية التي تتمتع بها الحاضرة المذكورة، نجد الأرز بمختلف أشكاله وألوانه، والذي يُشرع في حصاده في شهر نونبر وينتهي في شهر دجنبر، ثم هناك أيضا زراعة الدخن بنوعيه الأسود والأبيض الكبير والصغير[75]، كما أن الحاضرة تُنتج أيضا كميات مهمة من القمح، فرغم تواضع جودة الأخير إلا أنه يمد الأهالي بالخبز[76]. وإلى جانب ما سبق، تُنتج بساتين حاضرة تنبكتُ، كميات مهمة وهائلة من: البطيخ الأبيض، والأصفر، والأحمر، وقليلا من الشمام ذي اللون الأخضر والقشرة البيضاء، إضافة إلى مجموعة من الخضروات، مثل: القرع، والفاصولياء، والكرنب، واللفت، والبصل[77]، والملوخية[78]، وأمام ندرة الطماطم في الحاضرة المذكورة، فغالبا ما كانت تستورد كميات معتبرة منها من بعض المناطق العربية أو الأوروبية[79].

ب: الثروة الحيوانية

يتبيّن جليا من خلال مونوغرافية الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، أن حاضرة تنبكتُ كانت غنية من حيث الإنتاج الحيواني، الذي يظهر أنه كان متنوعا إلى درجة كبيرة، ومن بين الأصناف الحيوانية المعروفة في الحاضرة المذكورة، نجد كل من: الجاموس،

والغنم، والماعز[80]، والإبل، وخاصة النوع المسمى في اللسان المحلي التنبكتي بـ ''هيو'' (Hio)[81]، كما تتمتع الحاضرة أيضا بأنواع مختلفة من الدواجن، مثل: البط[82]، والدجاج الحبشي[83].

الفرع الثاني: النشاط الحرفي

تحتوي ''مونوغرافية تنبكتُ'' للأب أوگوسطان پروسپير هاكار على معلومات عديدة وكثيفة حول الأنشطة الحرفية، وكذا الصناعات التقليدية الرائجة وقتذاك في حاضرة تنبكتُ، وتحديدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وما يميز هذه الحرف والصنائع المتنوعة، هي أن كل فئة من فئات الحاضرة المذكورة تختص في حرفة أو حرف معينة، وهكذا نجد أن فئة ''الألفا'' (les Alfa)، أو ''العلماء'' (les Savants)، تختص في أعمال الخياطة، أما فئة ''الأرمى'' (les Arma) ذي الأصول المغربية، نجدها تختص في صناعة الأحذية والنعال، في حين نجد أن السكان ذوي ''الأصول السنغية'' (la Population Songoy) يقومون بأعمال وحرف متنوعة ومختلفة، ومنها حرف: الجزارة، والحدادة، والسباكة، والنجارة، وصناعة الأثاث، وحياكة القماش، والحلاقة، والسمسرة، والبناء[84]، بينما الساكنة ذي ''الأصول الصانصاندينگية'' (Sansanding) يختصون في أعمال صباغة الأقمشة وخياطة النسيج[85].

ولعل ما يلاحظ، في هذا الصدد، هو أن هذه الحرف، وهذه الصنائع المختلفة، كان يُشرف عليها مشرفون وأمناء خاصون، حيث كانوا يمارسون نوعا من السلطة على الأعضاء الذين ينتمون إليها، فمثلا نجد أن أمين الجزارة كان يراقب سوق اللحوم، ويصادر اللحوم النتنة والفاسدة، واللحوم المباعة بسعر أعلى من السعر الذي حدده سلفا[86]، وقد ساعد على ازدهار هذه الحرف والصنائع، توفر الحاضرة المذكورة على المواد الأولية المحلية، وعلى الأسواق التجارية، التي ساعدت بشكل كبير في تسهيل عمليات البيع والشراء بين الأهالي.

الفرع الثالث: النشاط التجاري

تُعتبر حاضرة تنبكتُ من حواضر بلاد غرب إفريقيا القليلة التي عرفت رواجا ونشاطا تجاريا مهما، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث سمح موقعها الجغرافي الاستراتيجي المتميز الذي هو عبارة عن ملتقى طرق القوافل التجارية التي تجوب الصحراء الإفريقية الكبرى، **"وهمزة وصل بين العالم العربي وإفريقيا السوداء"**[87] في خلق مركز تجاري مهم استقطب مجمل تجار أقطار المعمور، سواء القادمين من إفريقيا الشمالية، أو من المناطق الإفريقية الزنجية، أو من أوروبا الغربية، أو من بعض المناطق المشرقية، وكل هذا خلق حركة وديناميكية اقتصادية مهمة، وعليه اعتبر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار حاضرة تنبكتُ **"مكان التقاء أولئك الذين يسافرون بالقوارب وأولئك الذين يسافرون بالجمال"**[88]، وحتى نستشف بجلاء القيمة الاقتصادية والتجارية لحاضرة تنبكتُ في الفترة الزمنية المذكورة أعلاه، يقول شارل بغوسلاغ (Charles Brosselard) أحد أقطاب الإدارة الاستعمارية الفرنسية في القارة الإفريقية على لسان أحد المغاربة: **"[تنبكتُ] أرض مباركة. إنها منجم ذهب، كل ما عليك فعله هو الانحناء لجمعه؛ رحلة واحدة إليها تثري المرء"**[89].

وفي ذات الاتجاه، يُخبرنا كل من الباحثين الفرنسيين لوسيان هوبير (Lucien Hubert) وموريس دولافوس (Maurice Delafosse) أن حاضرة تنبكتُ كانت تُشكل لفترة طويلة السوق الكبير للصحراء الغربية المغربية[90]، وهكذا كانت تستقبل تلك الحاضرة وإلى سنة 1887م ما يقرب عن 400 قافلة تجارية، وكان عدد الإبل المكونة لتلك القوافل حوالي 350 رأس[91]. ومن جهته، يُشير الأب أوگوسطان پروسپير هاكار إلى أن حاضرة تنبكتُ كانت تُشكل مكانا تجاريا متميزا لتبادل مجمل منتوجات بلاد السودان الغربي بمنتوجات (طرابلس، وتونس، والجزائر، والمغرب، وواحات الصحراء)، حيث من الشمال تصل كميات معتبرة من: (الملح، والأقمشة، والجلود،

والأسلحة، ومسحوق البارود، والأواني الزجاجية، والسكاكين، والسكر، والشاي، والتمر). أما جهة الجنوب، فكانت تأتي منها مواد كثيرة ومتنوعة، مثل: (الدخن، والأرز، وزبدة الشيا، والعسل، وجوز الكولا، والأسماك المجففة، والحديد)[92].

وتجدر الإشارة هنا، أن ساكنة حاضرة تنبكتُ ورغم أن كل واحد من هذه الساكنة يتوفر على مهنة أو حرفة معينة، إلا أنهم يمتهنون التجارة وعلى نطاق واسع، من البائع الصغير للخبز، والعناب، وبذور البطيخ، إلى كبار التجار في الأقمشة، والحبوب، والعبيد، حيث كلهم لا يستغلون ذكاءهم وفطنتهم إلا لحساب الربح المحتمل في قضية ما[93]، ويذكر الأب السالف الذكر أنه بعد استقرار مجموعة من التجار الفرنسيين ومن سانت لويس (Saint-Louis) تحديدا بحاضرة تنبكتُ، أضحوا يستوردون بعض المنتوجات الأوروبية، وعليها أصبحوا ينافسون التجار المغاربة والطرابلسيين[94].

ونلاحظ، من جهة أخرى، وحسب الأب السالف الذكر، دائما، أن مجمل العمليات التجارية في حاضرة تنبكتُ كانت تُجرى في السوق وذلك مباشرة بعد أن أقرت السلطات الاستعمارية الفرنسية ذلك، حيث كان التجار في السابق يمارسون تجارتهم أمام منازلهم، وفي الساحات، وفي الأزقة المجاورة[95]، سوق حاضرة تنبكتُ كما يذكر الأب أوگوسطان پروسپير هاكار، هو سوق حديث وفسيح، مستطيل الشكل، شيدت جوانبه على شكل أروقة، يقيم بها الباعة مع بضائعهم، هذا السوق كان إلى غاية عام 1896م، يتكون من عدد كبير أو أقل من أكواخ مصنوعة من القش، ومآوي الحصير فوق ساحة ضيقة[96]، هذا السوق أيضا، تُعرض فيه منتوجات متنوعة وشديدة الاختلاف، من أبرز هذه المنتوجات نجد كل من: (الدخن، القمح، الأرز، البطيخ، الدجاج، الحمام، البيض، الكولا، الفلفل الحار، الملح، التوابل، الملوخية، البرتقال، البصل، الثوم، الجبن، الحليب، الزبدة، الفول السوداني، الأسماك، الحلويات، العسل، التبغ، الزجاج، المجوهرات بمختلف الأشكال، الأقمشة بمختلف الألوان، الأحذية)، وغيرها كثير[97].

وفي نفس السياق، يرى الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أنه بفعل تنوع المنتوجات والبضائع التي يشهدها سوق حاضرة تنبكتُ، يُوَلِّدُ بكيفية أو بأخرى، حركية كثيفة تجعل من السوق المذكور الجزء الأكثر حيوية في حاضرة تنبكتُ برمتها[98]، وفي إشارة فريدة يذكر الأب السالف الذكر أن أغلب الباعة في الحاضرة المذكورة هم من النساء، حيث لا يبيع الرجال سوى الأقمشة، والملح بالجملة، واللحوم، والأحذية، كما يذكر أن أغلب التجار هم من فئة "الإماء"، يعمل البعض لحساب أسيادهن، في حين الأخريات، وهم الأغلبية، يعيشن على عائدات ما يستبدلونه من منتوجات، وعندما يحصلون في المساء على فرنك أو ثلاثة لن يكن قد أضعن أبدا يومهم، حيث بإمكان العديد منهم استيفاء حاجياتهم المختلفة؛ لأن الحياة المعيشية ليست مكلفة بالحاضرة المذكورة، إذ بـ 0.15 فرنك أو 0.20 أن يقضين يومهم على ما ينبغي أو أكثر[99].

من زاوية أخرى، يُخبرنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن البنية التجارية لحاضرة تنبكتُ سواء مع المغرب، أو مع أوروبا، أو مع حواضر بلاد غرب وشرق إفريقيا، أو مع بعض المراكز التجارية في شمال إفريقيا، تتلخص على الشكل التالي:

- **الصادرات:** ريش النعام[100]، الصمغ[101]، العاج[102]، التبغ[103].
- **الواردات:** النحاس[104]، الحديد[105]، الملح[106]، الطماطم[107]، الدخن، الأرز[108].

وهكذا، ومن خلال ما سبق، نستطيع القول إن حاضرة تنبكت تُعد من أكبر الحواضر السودانية التي شهدت حركية تجارية وديناميةاقتصادية معتبرة، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رغم الصعوبات والعراقيل الجمة التي عرفتها الحاضرة بشكل خاص، وبلاد السودان الغربي بشكل عام، والتي تتجلى بالأساس في الهجمة الامبريالية الفرنسية التي اكتسحت الحاضرة المذكورة في سنة 1893م، الشيء الذي أثر على الدينامية التجارية في الحاضرة المذكورة.

الفرع الرابع: الأوضاع الدينية والثقافية والعلمية

يحفل نص ''مونوغرافية تنبكت'' للأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار بمعطيات ومعلومات مهمة وغنية عن الأوضاع الدينية، والثقافية، والعلمية بحاضرة تنبكتُ، حيث يتضح بجلاء أن هذه الحاضرة السودانية، كانت ملتقى للعلماء والطلبة من مختلف الأقطار الإفريقية والعربية، غايتهم الأساسية اكتساب العلم والتنافس في طلبه، وركوب المخاطر من أجله، والاغتراب عن الأهل والأحبة في سبيل تحصيله، هدفهم الاستكثار من لقاء العلماء الأعلام، والحصول على إجازاتهم بأسانيدهم في رواية الكتب والعلوم، وجلب أحمال الكتب، والنوادر من المؤلفات والمخطوطات.

أ: الأوضاع الدينية

يُخبرنا الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن دين حاضرة تنبكتُ هو الإسلام، وأن جميع عاداتها وكل تقاليدها مستمدة منه[109]، وحسب نفس المؤلف، فإن ما تتميز به حاضرة تنبكتُ ''جوهرة الصحراء''، و''مدينة الأولياء''، هي كثرة مساجدها، هذا دون احتساب المصليات الخصوصية، المنتشرة في مختلف ربوع الحاضرة، ومن المساجد المعروفة والشهيرة في الحاضرة المذكورة، نجد مسجد ''جينجيري بير'' (Djingerey-Ber) الواقع في أقصى الجنوب الشرقي من الحاضرة السالفة الذكر، هذا الأخير تم تشييده في القرن الحادي عشر الميلادي من قبل أحد ''المرابطين'' (Marabout) المعروف باسم ''ألكالي-ألاكيب ألاكوم'' (Alakoum Alkali-Alakib)، ثم مسجد ''صانكوري'' (Sankore) الواقع في شمال الحاضرة، والمشيد في نفس الفترة الذي شيد فيه المسجد الأول، هذا المسجد شيد من طرف امرأة ثرية[110]، ثم هناك أيضا مسجد آخر معروف باسم ''سيدي يحيى'' (Sidi Yahya)، هذا الأخير يقع وسط الحاضرة، وقد شيد في القرن الخامس عشر من طرف عمر حاكم تنبكتُ وقتذاك[111]. وفي ذات الاتجاه، يُشير الأب الآنف الذكر أن كل مسجد من مساجد حاضرة تنبكتُ يتوفر على

إمام يشرف على إقامة الصلاة العامة (la prière publique) والوعظ والإرشاد بالمسجد، وغالبا ما يتم اختيار هؤلاء الأئمة من فئة ''الألفا'' (les Alfa)، المعروفين بعلمهم الغزير وتقواهم[112].

ب: الأوضاع الثقافية والعلمية

يُشير الأب أوگوسطان پروسپير هاكار أن حاضرة تنبكتُ كانت تُعتبر من الناحية الثقافية، أحد أكبر المراكز العلمية، والأكثر أهمية للعلوم الإسلامية في بلاد السودان الغربي، مدارسها عديدة، حيث يرتادها ليس فقط من قبل شباب الحاضرة، ولكن أيضا من قِبل العديد من الطلبة الأجانب الذين يعودون إلى وطنهم بعد إقامة معيّنة في حاضرة تنبكتُ، لتلقين مواطنيهم مختلف ما تلقوه من الدروس والعلوم[113]، إلى جانب ما سلف ذكره، يضيف الأب السالف الذكر أن حاضرة تنبكتُ كانت تتوفر على حوالي عشرين مدرسة، وعادة ما يُشرف على هذه المدارس فئة ''الألفا'' (les Alfa)، حيث يقومون بتدريس اللغة العربية، والإشراف على تحفيظ القرآن الكريم وتفسيره للطلبة، في مقابل هذا يتلقى المدرسون أجرة تتناسب ومكانة الوالدين، وغالبا ما تُقام الدروس في الصباح عند الفجر، ثم نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، وفي المساء عند حوالي الساعة التاسعة مساء، ويضيف المؤلف السالف الذكر أن الأطفال المتمدرسين يلتحقون بالمدارس وحلقات الدرس بالتناوب في أوقات مختلفة من اليوم، ومن يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، يُفترض أنه قد أنهى دراسته؛ وبعد ذلك تُقام حفلة عائلية على شرفه، ويتم الطواف به بفخر منقطع النظير عبر الحاضرة برفقة بعض أصدقائه، ثم يتلقى المدرس هدية على ذلك تتألف عادة من أحد العبيد[114].

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أن ''مونوغرافية تنبكتُ'' للأب والمستكشف الفرنسي أوگوسطان پروسپير هاكار نفيسة ونادرة، نظرا لما تزخر به من معطيات ومعلومات قيّمة

في غاية من الأهمية، من شأنها إذا ما استغلت بالكيفية المثلى أن تساعدنا لا محالة على ملأ الفراغ المعرفي الذي تشكو منه الكتابات التاريخية السودانية، المتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى مثل هذه الكتابات الأجنبية، رغم نظرتها الاستعلائية، وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحت اليوم ضرورة ملحة يفرضها البحث التاريخي المعاصر من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقاربة مواضيع وقضايا جديدة تهم أساسا: التاريخ الذهني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني، صحيح أن هذه الكتابات لن تمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وكاملة وواضحة حول تاريخ الحاضرة المذكورة وحضارتها، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسد بعض الفجوات، التي تعاني منها المصادر المحلية السودانية.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث:

- جاهل، عادل بن محمد، "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، في **مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية**، مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، العدد 51، مارس 2019، (صص.65-84).
- عبدي، محمد ولد، "حاضرة تنبكتو تاريخها ومنجزها الحضاري وصورتها في مرايا الرحالة"، مقال ضمن ندوة بعنوان: **الرحلة العربية: المغرب منطلقا وموئلا**، (تحرير وتقديم نوري الجراح)، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2009، (صص.175-193).
- هاكار، أوغوسطان، **مونوغرافية تمبوكتو**، (تقديم وترجمة زوليخة بنرمضان وحسن أميلي)، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، طبعة 2017.
- Brosselard, Charles, **Tlemcen et Tombouctou**, Alger : Imprimerie de A. Bourget, 1861.
- Ceillier, Jean-Claude, **Histoire des Missionnaires d'Afrique (Pères Blancs): de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur (1868-1892)**, Paris: Édition Karthala, 2008.
- Hacquard, Augustin, **Monographie de Tombouctou**, Paris: Société des Études Coloniales et Maritimes, 1900.
- Hubert, Lucien et Delafosse, Maurice, **Tombouctou: Son Histoire-Sa Conquête**, Paris: Édition Grand Imprimerie Parisienne, 1894.

- Shorter, Aylward, **Les Pères Blancs au Temps de la Conquête Coloniale : Histoire des Missionnaires d'Afrique 1892-1914**, [Traduit de l'Anglais par Gérard Guiraudin], Paris: Édition Karthala, 2011.

الهوامش:

[1]– عادل بن محمد جاهل، "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، في **مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية**، مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019، (صص.65–84)، ص.82.

[2]– Aylward Shorter, **Les Pères Blancs au Temps de la Conquête Coloniale**: **Histoire des Missionnaires d'Afrique 1892–1914**, [Traduit de l'Anglais par Gérard Guiraudin], Paris: Édition Karthala, 2011, p.67.

[3]– Jean-Claude Ceillier, **Histoire des Missionnaires d'Afrique** (**Pères Blancs**): **de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur** (**1868–1892**), Paris: Édition Karthala, 2008, p.277.

[4]– Aylward Shorter, **Les Pères Blancs…**, op.cit., p.67.

[5]– انظر: أوغوسطان هاكار، **مونوغرافية تمبوكتو**، (تقديم وترجمة زوليخة بنرمضان وحسن أميلي)، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، طبعة 2017، ص.15.

[6]– Aylward Shorter, **Les Pères Blancs**..., op.cit., p.67.

[7]– Ibidem.

[8]– Augustin Hacquard, **Monographie de Tombouctou**, Paris: Société des Études Coloniales et Maritimes, 1900, pp.VI–VII.

[9]– Aylward Shorter, **Les Pères Blancs…**, op.cit., p.68.

[10]– Augustin Hacquard, **Monographie…**, op.cit., p.VII.

[11]– Ibid., p.VI.

[12]– Ibid., pp.VI–VII.

[13]– أوغوسطان هاكار، **مونوغرافية**...، م.س، صص.11–12.

[14]– Augustin Hacquard, **Monographie…**, op.cit., p.VI.

[15]– أوغوسطان هاكار، **مونوغرافية**...، م.س، ص.12.

[16]– Augustin Hacquard, **Monographie…**, op.cit., p.1.

[17]– Ibidem.

[18]– Ibid., p.13.

[19]– Ibid., p.8.

[20]– Ibidem.

[21]– Ibid., p.9.

[22] –Ibid., pp.8–9.

[23]- Ibid., p.13.
[24]- Ibidem.
[25]- Ibid., pp.13-14.
[26]- Ibid., p.16.
[27]- Ibid., p.14.
[28]- Ibidem.
[29]- Ibid., p.16.
[30]- Ibid., p.18.
[31]- Ibid., p.25.
[32]- Ibidem.
[33]- Ibid., p.24.
[34]- Ibid., p.46.
[35]- Ibidem.
[36]- Ibid., p.5.
[37]- Ibidem.
[38]- Ibidem.
[39]- Ibid., pp.5-6.
[40]- Ibid., p.6.
[41]- Ibid., pp.7-8.
[42]- Ibid., p.8.
[43]- Ibidem.
[44]- Ibid., p.34.
[45]- Ibid., p.35.
[46]- Ibid., p.36.
[47]- Ibid., pp.35-36.
[48]- Ibid., p.17.
[49]- Ibid., p.38.
[50]- Ibid., p.39.
[51]- Ibid., pp.17-18.
[52]- Ibid., p.39.
[53]- Ibid., pp.39-40.
[54]- Ibid., p.27.
[55]- Ibid., p.28.
[56]- Ibid., p.30.
[57]- Ibid., p.28.

[58]- Ibid., p.30.
[59]- Ibid., p.28.
[60]- Ibidem.
[61]- Ibid., p.30.
[62]- Ibid., p.28.
[63]- Ibid., p.33.
[64]- Ibid., pp.31-32.
[65]- Ibid., p.31.
[66]- Ibid., p.13.
[67]- Ibid., p.21.
[68]- Ibidem.
[69]- Ibid., pp.33-34.
[70]- Ibid., p.32.
[71]- Ibid., p.23.
[72]- Ibid., p.31.
[73]- Ibid., p.32.
[74]- Ibidem.
[75]- Ibid., pp. 22-23.
[76]- Ibid., p.23.
[77]- Ibidem.
[78]- Ibid., p.35.
[79]- Ibid., p.23.
[80]- Ibidem.
[81]- Ibid., p.22.
[82]- Ibid., p.20.
[83]- Ibidem.
[84]- Ibid., p.40.
[85]- Ibid., p.43.
[86]- Ibid., p.40.
[87]- محمد ولد عبدي، "حاضرة تنبكتو تاريخها ومنجزها الحضاري وصورتها في مرايا الرحالة"، مقال ضمن ندوة بعنوان: **الرحلة العربية: المغرب منطلقا وموئلا**، [تحرير وتقديم نوري الجراح]، أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2009، ص.184.
[88]- Augustin Hacquard, **Monographie…**, op.cit., p.48.
[89]- Charles Brosselard, **Tlemcen et Tombouctou**, Alger : Imprimerie de A. Bourget, 1861, p.7.

[90]- Lucien Hubert et Maurice Delafosse, **Tombouctou**: **Son Histoire-Sa Conquête**, Paris: Édition Grand Imprimerie Parisienne, 1894, p.5.

[91]- Ibid., p.11.

[92]- Augustin Hacquard, **Monographie…**, op.cit., p.48.

[93]- Ibidem.

[94]- Ibidem.

[95]- Ibidem.

[96]- Ibid., p.5.

[97]- Ibid., p.49.

[98]- Ibidem.

[99]- Ibid., pp.49-50.

[100]- Ibid., p.23.

[101]- Ibid., p.51.

[102]- Ibid., p.23.

[103]- Ibidem.

[104]- Ibid., p.41.

[105]- Ibid., p.42.

[106]- Ibid., pp.50-51.

[107]- Ibid., p.23.

[108]- Ibid., p.34.

[109]- Ibid., p.25.

[110]- Ibid., p.2.

[111]- Ibid., pp.3-4.

[112]- Ibid., p.43.

[113]- Ibid., p.25.

[114]- Ibid., p.44.